النص الإبداعي والنص النقدي
بين الاتصال و الانفصال
من الجاهلية إلى عصر التأليف

الأستـــاذ عمــار ويــس
أستاذ مساعد مكلف بالدروس
قسم اللغة وآدابها
جامعــة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

من الأمور التي أثارت الجدل وانقسم بشأنها الباحثون العلاقة بين الأدب والنقد الأدبي وأيهما أسبق في الوجود وطبيعة التأثير المتبادل بينهما. والحال أن الأمر لا يكاد يختلف بين أمة وأخرى حيث تبدو القاعدة المتحكمة في نشأة الأنشطة الإنسانية وتطورها واحدة، ويكفي أن نلاحظ الفارق الزمني الشاسع بين الأشعار اليونانية وما ألف حولها وما كتبه النقاد اليونانيون عنها لنتبين أن الأدب ينجز قوانينه الداخلية بأشواط بعيدة، قبل أن يتدخل النقد في شؤونه.

وإذا كان هذا هو شأن الوضع الابتدائي، فإن الأمر يختلف في المراحل التي تعقبه، حيث يتبادل الأدب والنقد المواقع من حيث السبق والمتابعة. وتشكل المرحلة الشفاهية ميدانا مثاليا لدراسة هذه القضية، لما تتمتع هذه المرحلة من أصالة وتلقائية في الإبداع.

لذلك تهدف هذه الدراسة إلى الرجوع إلى تراثنا لتبحث في طبيعة نشأة أحد الأنشطة الأدبية التي اكتسبت وجودها الموضوعي فيما بعد في فترات لاحقة من التاريخ الأدبي والثقافي للأمة. ذلك أن الوعي بطبيعة المنشأ لهذا العلم أوذاك تساعد الدارس والباحث على فهم آلية التطور في أي حقل من الحقول المعرفية التي يراد درسها، واستخلاص القوانين المتحكمة في شمولها قضية دون أخرى وتركيزها على أمور وإهمالها أمورا أخرى، حتى لا تطغى وظيفة من وظائف البحث على أخرى، بشكل يبعدنا عن روح التراث ويدخلنا في تعارض منهجي أو ابستمولوجي معه. من هنا تبدو ـ في نظري على الأقل ـ أهمية التطرق إلى توضيح مسألة المنشأ لما نسميه الآن ـ اصطلاحا ـ بالنقد الأدبي لما لهذا الأمر من أهمية في الإجابة عن بعض التساؤلات النظرية أو الإجرائية المتعلقة بهذا الحقل من حقول الأنشطة الأدبية.

لم يسلم باحث من الباحثين في حدود ما نعلم من الأسئلة المؤرقة التي تتعلق بنشأة الشعر العربي وتاريخ تطوره في أشكال يعتقد أنها سبقت الشكل الذي عرف به قبيل مجيء الإسلام وهو أمر يكاد أغلب الباحثين يعودون فيه إلى مقولة الجاحظ "وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة، وكتب أرسطا طاليس ومعلمه أفلاطون ثم بطليموس وذي بقراط وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور وقبل الأحقاب ويدل على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حجر:... فانظر كم كان عمر زرارة، وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له، إلى أن جاء الله بالإسلام، خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام."(1)

إن الأمر نفسه أو التساؤل نفسه طرح فيما يتعلق بالنقد الأدبي من حيث المنشأ أو الوجود أساسا وفي هذا السياق فإننا نسجل تباينا كبيرا بين الباحثين حول هذه القضية يصل أحيانا إلى حد التناقض في الطروحات التي يذهب بعض أصحابها إلى إنكار أي شكل من أشكال النقد الأدبي في الفترة الجاهلية كما هوالشأن في موقف الدكتور محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب حيث يعتبر أن البداية الحقيقية للنقد الأدبي في التراث العربي لم تبدأ إلا في الفترة التي تشمل نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع وعلى يد الآمدي تحديدا في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري معتبرا ما سبق هذا الجهد المحمود أمرا على شيء ضئيل من الأهمية يسهل معه تجاوزه ويحسن منهجيا القفز عليه ما عدا وقفة قصيرة خصصها لابن سلام لم تتجاوز ثلاث صفحات.

وقد ذهب غير محمد مندور مذهبا آخر كما يبدو من موقف الدكتور أحمد طه إبراهيم في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري، حين يتحدث عن بعض الشواهد النقدية وأحيانا أخرى عما يسميه بالصور النقدية متقبلا بعضها ومستنكرا بعضها الآخر مستكثرا صدورها عن عرب الجاهلية لعدم معرفتهم بعض الجوانب النحوية كما نفهمها الآن اصطلاحا ليخلص إلى رأي مفاده " إذا كانت طفولة الشعر العربي قد غابت عنا فإن طفولة النقد العربي غابت معها"[(2)] رغم أنه يتحدث في موقع آخر عن نقد أدبي عند العرب في الفترة الجاهلية حين يذكر سوق عكاظ فيقول عنها "كانت عكاظ سوقا تجارية يباع فيها ويشترى طريف الأشياء والحاجي منها... وكانت فوق ذلك كله بيئة من بيئات النقد الأدبي يلتقي الشعراء فيها كل عام."[(3)]

ويتضح للمعاين لموقف الأستاذ طه إبراهيم انعدام الوضوح في توصيف الظاهرة، غير أن القارئ المنصف لا يمكنه أن يتملص من واجب التجلة والتقدير لهذا الباحث الذي يعد من أوائل المؤسسين لدرس النقد الأدبي في الجامعات العربية، ومرد موقفه في تقديري يعود إلى عدم ضبط الموقف النظري من هذه المسألة حيث يبدو التزام الباحث وخضوعه إلى حتمية مسبقة تفترض وجود نقد أدبي بإزاء الشعر العربي، هو ما حتم عليه ربط فقدان طفولة النقد بفقدان طفولة الشعر في نوع من التبرير والاعتذار لدى القارئ الذي لم يتمكن الباحث من أن يقدم له بداية محددة لمجال دراسته. إن هذه الرغبة في التحديد لبداية الأشياء مع الرغبة في إثبات وجود للنقد الأدبي إلى جانب الأدب عموما والشعر خصوصا هو ما فرض على الباحث الاهتمام ببداية ونشأة النقد الأدبي، وقاده إلى هذا التذبذب في استعمال المصطلح الملائم للظاهرة الأدبية في هذه المرحلة من مراحل التاريخ

الأدبي، لكن رغم هذه الشوائب المسجلة في كتاب طه إبراهيم، إلا أن موقفه يعتبر أكثر تقدما وإيجابية من موقف الدكتور مندور الذي ألغى فترة كاملة حتى أنه لم يخص ابن سلام مثلا إلا ببضع صفحات وكذلك فعل مع ابن قتيبة. رغم أن التاريخ الأدبي قد أنصف الرجلين وأنصف من سبقهم من الرواة وعلماء اللغة الذين أسهموا بنقل صور النقد في القرون الأولى التي سبقت مرحلة النظر المنهجي الذي أنتج نقدا منهجيا حتى وإن اتكأ صاحبه ـ أعني الآمدي ـ على منجزات سابقيه وتوسع فيها كما هو الشأن في الموازنة بين الشعراء التي تنبه إليها الرعيل الأول من علماء اللغة الذين أشاروا إلى ظاهرة اقتفاء الشعراء الأمويين أثر الشعراء الجاهليين في بناء القصيدة وفي تفاصيل مقاطعها، وهو الأمر الذي انطلق منه الآمدي وعمقه وأعطاه الصبغة النظرية وليستنتج منه الدكتور مندور البعد التنظيري الذي هو رديف المنهج المقارن في تقديره على ما نظن.

لعل موقف الدكتور علي بن محمد في كتابه الذي صدر عن ديوان المطبوعات الجامعية أكثر حيطة حين تحدث عما أسماه — الشواهد النقدية -- ولسنا ندري إن كان يقصد بالشاهد ما يقصده النحاة باللفظة، أم أنه يذهب إلى معنى آخر مفاده الدليل. وهو في هذا المذهب لا يبعد كثيرا عن موقف عز الدين الأمين في كتابه طلائع النقد الأدبي عند العرب، الذي يذكر فيه ما دفعه إلى التأليف في هذا الباب فيقول "ولقد تبين لي من خلال دراستي لها — يقصد الكتب التي ألفت في النقد الأدبي - وإدمان نظري فيها أن إبراز القضايا النقدية إبرازا تاريخيا منظما يحتاج إلى عمل جديد وإلى نظرة جديدة."(4)

وحين يشرع في الحديث عن صميم عمله يفتتح الكتاب بقوله "كان هناك في الجاهلية نقد يتبع الأدب الجاهلي، كما كان هناك نقد يسبق هذا

الأدب وقد كان نقاد الجاهلية هم شعراؤها ولعل الناقد الأول وجد عقب المنشئ الأول كما يقولون... ولا شك في أن النقد الجاهلي كان له نصيب واف في تبدل الأطوار التي مرت عليها القصيدة الجاهلية قبل أن تبلغ الصورة التي وجدناها عليها في المعلقات وغيرها."[5]

يبدو الأستاذ عز الدين الأمين حريصا على استيفاء ثنائية النقد والأدب في الوجود حتى وإن كان ذلك من باب الافتراض متكئا على صيغة - كما يقولون - كما لو أن الظاهرة لا تكتمل إلا بوجود طرفي العملية، مع أن هذا الأمر ليس ضربة لازب كما يبين ذلك التاريخ الأدبي للإنسانية كافة كما تدل على ذلك التجربة الإبداعية العربية وكذلك التجربة الإغريقية كما سنرى لاحقا.

إن التذبذب يتضح والاضطراب يتجلى في استعمال المصطلح عندما يتحدث الدكتور عز الدين الأمين عن البدايات الأولى للنقد الأدبي فيقول "ولكن طلائع النقد الأدبي الأولى لم يعرف منها إلا ما صدر قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين عاما كحال الأدب الجاهلي"[6] حيث يلاحظ القارئ أن الباحث ينتقل من الحديث عن نقد جاهز يسبق الأدب أحيانا ويقفي على آثاره حينا آخر إلى الحديث عن طلائع هذا النقد الأمر الذي بفهم منه أنه في طور النشأة والتكوين، دون أن يغفل ربطه بالأدب كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

إن هذا الافتراض المسبق بضرورة تعايش هذين النشاطين من الأمور التي جعلت أغلب الباحثين يحجمون عن وضع الإشكالية في سياقها التاريخي البسيط والصحيح في الآن نفسه، والذي لا نجد فيه مبررا منهجيا يقضي بوجودهما معا أو بتعاقبهما بشكل مضبوط. ذلك أن الأمر مرده في تقديرنا إلى غلبة تشاط من الأنشطة الإنسانية على غيره من الأنشطة الأخرى

لأسباب تتعلق بطبيعة مرحلة من مراحل التاريخ، كما هو الحاصل في نشأة العلوم وتفرعها فيما بعد.

يمكننا أن نقول وبحذر شديد أن هذه المقاربات التي ذكرناها تنطلق من منطلق عاطفي في إثبات وجود للنقد الأدبي، وإن قصرت في تقديرنا في الإجابة عن الإشكال النظري الذي طرحناه في بداية هذا المقال. ذلك أن كل الطروحات تأسست على فكرة الارتباط بين الأدب والنقد الأدبي ارتباطا تزامنيا قد لايصمد إن تعرض أحد الطرفين لهزة كتلك التي أحدثها بعض المستشرقين وتابعهم فيها بعض الباحثين العرب في سياق تطبيق مناهج معينة لدراسة الأدب العربي.

إن هذه المرحلة من الدراسة التقليدية قد تم تجاوزها بفضل دراسات استندت إلى أرضية فلسفية واضحة نظرت إلى الشعر العربي نظرة شمولية في سياق حضاري أقام دعائمه كوكبة من الباحثين نذكر منهم الدكتور حسين مروة بكتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية[7] والدكتور محمد عابد الجابري بكتابه تكوين العقل العربي[8] وغيرهما من الباحثين الذين أسهموا في غرس فكرة **التأسيس** وأهميتها في إنارة درب الباحث وإعطائه مبررا مرجعيا وإجرائيا يتجاوز التجزيئية التي يتناول بها كل أهل اختصاص اختصاصهم.

بتقدم الزمن وتراكم الدراسات حول التراث النقدي تعمقت النظرة المنهجية لدى الباحثين وبدأت ملامح الجاهلية تتضح أكثر في جانبها النقدي، بعد أن كان الاهتمام بدراسة الشعر هو الطاغي على الساحة. وأمكن أن نقرأ لباحث محدث قوله "كان العرب منذ القديم مدركين بواسطة إحساسهم الفطري أن ما يسمعونه من شعر وسجع وخطب وأمثال يختلف عن مخاطباتهم اليومية."[9]. إن ما يسميه الأستاذ توفيق الزيدي

الإحساس الفطري للعرب هو النقطة التي ننطلق منها للاختلاف معه والابتعاد عن رؤيته لهذه المسألة ونتخذها مدخلا لإقحام الفكرة التي تشكل أساس هذا المقال، ذلك أن الأمر لا يتعلق في تقديرنا بإحساس فطري غير قابل للتفسير، بقدر ما يتعلق بفعل عاقل قصده منتجوه قصدا. ولكن في ظروف غير الظروف المتاحة لنا بما توفر لنا من نعمة الكتابة التي سهلت لنا تسجيل الملفوظ والمكتوب مما ننجز في شتى ميادين البحث. ويكاد الباحث نفسه يلامس الحقيقة حين يتحدث عن تأخر بلورة النقد فيقول "نستخلص إذن من هذه الإشارات أن للناقد العربي إحساسا بالكلام الأدبي ممثلا في الشعر دون إبراز واضح لخصائصه خاصة ما تعلق منها بجانب الملفوظ. ولعل ذلك مرده إلى طغيان أدبية المنطوق على أدبية المكتوب إذ أن النص عند النقاد ما زال ممارسة شفوية لم يهتدوا بعد إلى جانب الصنعة فيه"(10) يلف الغموض في هذا القول لفظة النص، وما إذا كان المقصود بها النص النقدي أو النص الإبداعي، وما إذا كانت الممارسة تنصرف إلى الشاعر أم إلى الناقد. والحال أن العنصر الغائب في هذا التحليل هو ما نسميه **بالممارسة النقدية** التي نرى أن من التعسف نسبتها والبحث عنها لدى النقاد، فإن لم نجدها أنكرنا وجودها أصلا، مع إقرارنا سلفا بأننا نتحدث عن مرحلة شفوية، فإننا نسقط في خطأ تطبيق اشتراطات مرحلة الكتابة والتدوين عليها، وهو الأمر الذي يحرمنا من استغلال إمكانات المرحلة الشفوية التي تعد تجربة فذة لم تستطع الأمة إعادة إنتاجها رغم ما توفر لها من وسائل الكتابة والتدوين فيما بعد. ذلك أن الوعي بالعلم وحفظ قواعده لا يقودان بالضرورة إلى القدرة على الإبداع فيه أو حتى إعادة إنتاجه بالشكل الذي استخلصت منه قواعد العلم أول الأمر.

إن الوعي بأهمية المرحلة الشفوية قد قاد أحد الباحثين إلى الإشارة إليها إشارة صريحة حين ينسب إليها هذا النشاط ويعنون به كتابه مبررا ذلك بأن موضوعه "يستدعي مدخلا حول الثقافة الشفوية في علاقتها بالثقافة المكتوبة اعتبارا لتلازم النوعين في الثقافة العربية منذ أقدم عهودها ولتبادل الهيمنة بينهما."[11]

رغم الوعي الواضح في مقدمة الكتاب بأهمية هذه الفترة من خلال قول الباحث "وإذا كانت قضية الموضوع المركزية تنهض على بناء تصور عن نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي، فإن ذلك البناء سيتأسس على متابعة الجهود المبذولة لنقد الشعر خلال هذا الطور، غير أن هذه المتابعة قد تكون طردية بتتبع هذه الجهود عبر تسلسلها وتطورها في الزمن، أو ارتدادية ببلورة الخلاصة المركزية وتحديد المقدمات المؤدية إليها"[12]، لعل هذه أول مرة يوضح فيها باحث النظرة إلى التراث النقدي من منظارين متباينين تنطلق الأولى من الحديث المبتسر والمتخفي الذي حدثت به الفترة الجاهلية عن نفسها وحديث فترة التدوين عن الجاهلية وما صاحب ذلك من تشكيل وإعادة صياغة حسب الإمكانات أحيانا والأهواء في أحيان أخرى.غير أن هذا الموقف الواضح يتلبس بالموقف العام المألوف حين يصرح الباحث قائلا "إن نقد الشعر عند العرب قد تأسس في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث مع ابن سلام الجمحي خاصة ويجد هذا التأسيس تجسيده في كتاب طبقات فحول الشعراء ليس باعتباره أول أثر نقدي مدون تفتتح به المكتبة النقدية العربية القديمة وينتهي به الطور الشفوي، بل بفعل القضايا التي طرحها ابن سلام في كتابه وفي مقدمتها من حيث القيمة والأهمية دعوته المزدوجة إلى استقلال النقد عن غيره من المجالات الثقافية الأخرى."[13]

إن ما ذهب إليه الباحث صحيح كل الصحة غير أن عودة إلى كتاب ابن سلام نفسه وإلى حديثه عن عمله في كتابه تذكر القارئ أن الكتاب هو في نهاية المطاف لملمة للتراث النقدي السابق عليه رغم المجهود غير المسبوق الذي قام به ابن سلام والمتمثل أساسا في جمع التراث النقدي أو ما نفضل تسميته **بالممارسة النقدية** على يد كبار الرواة وعلماء اللغة كعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وخلف الأحمر وحماد الراوية والمفضل الضبي. وكل هؤلاء قد روى عنهم ونقل آراءهم ونظمها وأعطاها شكلا منظما رغم أن الطابع العام للكتاب جاء في قالب الرواية عما مضى، حيث يقول " ذكرنا العرب وأشعارها والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها... وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر، كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه.[14]

يتضح للمتفحص لهذا القول لابن سلام أنه يدرج قوله في سياق جماعي وعيا منه في تقديرنا بأهمية الممارسة النقدية التي وجد نفسه وريثا شرعيا لرجالاتها وأغلبهم من أساتذته الذين روى عنهم وأحسن أن يكون موضوعيا ومحايدا، بالشكل الذي يمكننا اليوم من التمييز بين العمل النادر لابن سلام المندرج ضمن المكتوب والمنجز السابق الذي يدرج ضمن التراث الشفوي المستند بدوره إلى الممارسة الأصيلة المتلبسة بالإبداع كما جسدته القريحة العربية واستخلصته الأجيال المتلاحقة من علماء الأمة في هذا الحقل كما في غيره.

يتأكد هذا المسلك عند ابن سلام بشكل جلي حين يقول "وقد اختلف الناس والرواة فيهم. فنظر قوم من أهل العلم بالشعر والنفاذ في كلام

العرب والعلم بالعربية إذا اختلفت الرواة فقالوا بآرائهم، وقالت العشائر بأهوائها، ولا يقنع الناس مع ذلك إلا الرواية عمن تقدم."[15]

يبدو أن ابن سلام يعي بوضوح عمله كما يعي موقعه من التاريخ الأدبي وهو الأمر الذي جعله يميز أصنافا من المتدخلين في الشأن الشعري ذكر منهم أربعة أطراف : الناس والرواة أهل العلم بالشعر والنفاذ في كلام العرب وأخيرا أهل العلم بالعربية.ونحن إذا تأملنا فعل هذه الطوائف وجدناه يندرج في ما أسميناه **بالممارسة النقدية الملفوظة وغير المكتوبة** والتي هي في نهاية المطاف استلهام للتراث الإبداعي الذي أنجز صرحا فنيا عن طريق تمثل قوانين ترسخت في ممارسة القول عبر أجيال عديدة في الجاهلية ورسخها القرآن الكريم كممارسة لغوية جسدت قوانين اللغة العربية في شكلها الراقي المنضبط الذي كرس مصداقية الشعر الجاهلي باعتباره تجسيدا للممارسة النقدية ومصدرا للنشاط النقدي ثم التراث النقدي في ما بعد.

إن النتيجة الطبيعية لما نسميه ممارسة نقدية، هو هذا الصرح العظيم الذي تجسد في الشعر الجاهلي، بمختلف أنساق تنظيم القول وعززه نزول القرآن الكريم وفق هذه القوانين التي قضت الأمة دهورا من الممارسة الإنسانية لإنجازها حتى أثمرت هذا المعلم الفني الشاهد على المرحلة الشفوية مستوعبا التجربة الإنسانية في إنتاج صورة لغوية عن الشروط الاجتماعية والفنية للإنسان العربي. وهو الأمر الذي أدركه الأوائل حين استشعروا القطيعة العقائدية والتواصل اللغوي في الآن نفسه بين الجاهلية والإسلام، فأعطوا التراث الجاهلي وصورته في العصر الأموي والعباسي ما يستحق من العناية التي حولت فيما بعد لأغراض سياسية وإلى تعصب لمضامين قديمة هي أبعد ما تكون عن الاستفادة المثلى من الممارسة النقدية في جوهرها. وقد استغرب الأستاذ أحمد أمين، وقد كان محقا، سطوة الأدب الجاهلي أو

جنايته على الأصح على الأدب العربي فقال "كان الأدب الجاهلي صورة صادقة لحياة العرب في جاهليتهم... وكانت أوزان شعرهم هي من وحي نفوسهم منسجمة مع غنائهم مؤتلفة مع آذانهم ثم جاءت الدولة الأموية... وكان الذوق فيها ذوقا عربيا يشبه الذوق الجاهلي إلا بما لطفته المدنية... فلا عجب أن يأتي الشعر الأموي مصبوغا بالصبغة الجاهلية في الأوزان والقوافي والموضوعات والروح... إنما العجب أن يأتي الشعر العباسي على هذا النمط وكثير من الشعراء فرس والحياة حياة فارسية في أكثر ألوانها، والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مخالفة كل المخالفة للحياة الجاهلية والأموية."[16]

رغم دقة ملاحظة الأستاذ أحمد أمين إلا أن تفسيره لها بالصراع الحاصل بين أنصار القديم وأنصار الحداثة لا يقدم فهما داخليا للميكانيزمات التي تجعل الشعر الجاهلي يصمد في وجه التغيير الذي دعا إليه أمثال أبي نواس، غير أن ملاحظة عابرة من الأستاذ أحمد أمين تستوقف القارئ لأهمتها إذ يقول "نعم إن الإسلام كان له أثر كبير في حياة الناس، ولكن كان له أكبر الأثر في أوساط الشعب ورجال العلم ورجال الأعمال وأقله في الشعراء."[17]

إن هذه الملاحظة الأخيرة تصلح منطلقا لسؤال كبير عن قلة تأثير الإسلام في الشعراء أو في الشعر على الأصح، إن الإجابة السليمة في نظرنا أساسها قوله تعالى: **﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾**[18] وقوله تعالى : **﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾**.[19] فما الذي كان يعلمه العرب حين نزول القرآن الكريم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استثنينا بالطبع الجانب العقائدي وهذا هو جوهر البحث عن الطاقات الكامنة التي أنجزت نماذج من أنماط القول دون أن تعني نفسها

بالتعبير عنها لانعدام الكتابة أو عدم شيوعها بحسب الآراء المختلفة في هذا الموضوع. ولأن الحاجة إلى تأسيس العلم لم تحن بعد وهذا هو جوهر المرحلة الشفاهية. من هذا المنطلق تكتسب مرجعيات ابن سلام المشار إليها سابقا مصداقيتها لأنها تتكئ على ممارسة أنتجت تجربة فعلية يحسن البحث في القوانين التي أتاحت فعاليتها إلى الحد الذي جعل تجاوزها أو تقليدها من الأمور العسيرة مما يجعل مشروعا طرح السؤال حول الفعل والقوانين الضابطة المنظمة لهذا الفعل وعلى أي الجانبين يجب التركيز ويقع الاهتمام، وأي المسلكين حري بأن يقود إلى الفعالية المنتجة وآلية ذلك. ويكفي أن نلقي نظرة على اتجاهين متمايزين في البلاغة أو النقد العربيين،لنتبين أثر كل اتجاه على الدرس البلاغي والنقدي كما تجلى ذلك في الدراسات البلاغية، إذ استقرت في مدرستين عرفتا بالمدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية. وفي هذا السياق يذكر الدكتور عبد القادر حسين عن المدرسة الكلامية "اهتمامها بالتعريفات والتحديد والتقسيم المنطقي واستعمال الطريقة الفلسفية المنطقية في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها وبذلك بعدت أشواطا عن مرمى البلاغة وأهدافها، فأزهقت روح البلاغة وأحالتها قواعد جامدة لا حياة فيها... أما المدرسة الأدبية فقد عاش معظم رجالها في بيئة عربية، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتابا لهم ذوق أدبي صاف وإحساس فني صادق، فلم يهتموا بالتحديد والتقسيم اهتماما كبيرا، وإنما عولوا على الذوق السليم والإحساس الرقيق في تناول النص والنظر إليه والحكم عليه... وأكثر رجال هذه المدرسة الأدبية من الأمثلة والشواهد والآيات القرآنية، وغالبا ما يذكرون القاعدة في سطر أو سطرين ثم يوجهون جل همهم إلى تحليل النص الشعري أو النثري أو الآية القرآنية."[20]

إن ما ذهب إليه الدكتور عبد القادر حسين يعيد طرح العلاقة بين النص الإبداعي والنص النقدي وكيف أن الثاني ليس منتجا بالضرورة للأول

وإن ادعى في كثير من الأحيان أنه ينظمه فإذا به يكبله ويقيده بشتى القيود التي تكبح نماءه وتطوره، وهذا ما قادنا إلى تطوير فكرة أن عدم وجود نصوص نقدية مكتوبة وموثقة لا يعني بالضرورة خلو تراث أمة ما من القاعدة التي تنظم فنون القول عند هذه الأمة أو تلك. كما تفسر لنا عزوف الأوائل عن الإكثار من التنظير والاكتفاء بالملاحظة الدقيقة الموجزة والإسهام في إثراء النص الأدبي بنص نقدي فيه شيء غير قليل من الإبداع ويكفي أن يقرأ المرء كتابي عبد القاهر الجرجاني ـ الدلائل والإعجاز ـ ليتبين المزج العجيب بين النص الإبداعي والنص النقدي، سيرا على طريقة الأصمعي وهو يجيب عن سؤال الفحولة في كتابه فحولة الشعراء دون أن يغرق في التنظير والتحديد الذي يقيم حدا مصطنعا بين القول والقاعدة المنظمة لهذا القول بشكل يبعدنا ويفقدنا القدرة على إعادة إنتاج ما نزعم أننا بصدد دراسته وبذلك يتحول العلم بالشيء إلى وسيلة للابتعاد عن منبع العلم وجوهره.

في حديثه عن مواصفات الشاعر يقول الأصمعي "لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي أشعار العرب ويسمع الأخبار ويعرف المعاني وتدور مسامعه الألفاظ وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله والنحو ليصلح به لسانه وليقيم إعرابه والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثلب وذكرها بمدح أو بذم."[21]

إن قراءة تحليلية لنص الأصمعي تضعه في تقابل مع ثقافة الناقد للنويهي.ذلك أن الأصمعي ها هنا يتحدث عن علوم لم تنجز بعد في جملتها بل لا زالت في اطار الملاحظات التي تجمعت لتنتج العلم العربي فيما بعد رغم انجاز الخليل بن أحمد وسيبويه لما أنجزاه في هذا الباب على أساس وفاهما قبل الأصمعي ومجايلته لهما.[22]

إلا أن العلم لم يتأسس بعد ولم تتضح الاهتمامات بشكل متمايز يجعل العلم مستقلا عن قواعده مجسدا في أشخاص يحملونه في مجال النقد الأدبي كما اتضح جليا في مجال اللغة على يد النحاة. ولذلك استشعر الأصمعي هذا الوضع فانحاز الى ما اصطلحنا على تسميته بالممارسة النقدية يباشرها صاحب النص الإبداعي- إلى أن تتهيأ الشروط الموضوعية لظهور الناقد على يد ابن سلام فيما بعد بفعل التراكم الحاصل في الملاحظات التي ستتجمع لتصبح علما استمرارا للآلية الأصلية التي عول عليها الشاعر العربي منذ الجاهلية في إبداع ما أبدعه من شعر أعني بذلك آلية الرواية التي ثبت اتصالها منذ الجاهلية حتى القرن الثاني للهجرة. وإن كانت الرواية قد مرت بمرحلتين كما يذهب الى ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد حيث يقرر "فلما أصلت أصول علم الحديث وأرسيت قواعده وعني فيه بالإسناد وتصدر المحدثون للتحديث في مجالس العلم من حفظهم، صار يطلق عليهم أيضا لفظ الرواية... ومن هنا دخلت الرواية الأدبية في طورها الثاني، وهو ما يصح أن يطلق عليه دور الرواية العلمية.و هي تقوم على الحفظ والنقل والإنشاد كالرواية المجردة في طورها الأول،و أضيف اليها الضبط والإتقان والتمحيص والشرح والتفسير وشيء من الإسناد.[23]

والنتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا الوصف لتطور الرواية تؤكد ما ذهبنا اليه من عدم استواء النص النقدي مستقلا ممتلكا أدوات التوجيه ومن هنا استمرارية النص الابداعي في ممارسة النظر الى نفسه بنفسه في حدود الأدوات المتاحة له، حتى وإن أضيف إليها قواعد بعض العلوم التي جسدها وتضمنها الشعر بالأساس واستقرئت فيه منذ الجاهلية و بالتالي فان الممارسة النقديةمتضمنة في النص الابداعي ابتداء وعلى النص النقدي أن يتشكل في شكل ملفوظ كما حصل لاحقا ليضبط النص الإبداعي. ولعل هذا ما حدا بالأصمعي إلى وضع شروط الشاعر وليس وضع شروط الناقد،

مؤكدا على سلطة النص الابداعي وأهمية الرواية باعتبارها الآلية الداخلية المثلى التي نما في أحضانها الابداع الشعري و انتقل من جيل إلى جيل، خاصة تلك الرواية التي كان يقوم بها الشعراء أنفسهم فيما يشبه المدرسة الشعرية: "أشهرها المدرسة التي تبدأ بأوس بن حجر و تنتهي بكثير، فقد كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس و تلميذه ثم صار زهير أستاذا لابنه كعب وللحطيئة... ثم جاء هدبة بن خشرم الشاعر وتتلمذ للحطيئة وصار راويته. ثم تتلمذ جميل بن معمر العذري اهدبة و روى شعره. ثم كان آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثيرا تلميذ جميل وراويته."(24)

إن هذه الحقائق التاريخية التي تكشف استقلالية النص الابداعي هي احدى الخصائص المميزة للفترة الشفاهية من تاريخ تراثنا الأدبي، كانت فيها الممارسة الابداعية فعلا خلاقا ملفوظا ليس بحاجة الى خطاب مستقل عنه يضبط خطواته أو يحدد له قواعده الى وقت غير قصير.و هذا ما يفسر جناية الشعر الجاهلي وسلطته على الشعر العربي كما يذهب الى ذلك الدكتور أحد أمين.(25)

وفي خاتمة مقالنا نود التوكيد على أن افتقار تراثنا الأدبي في مرحلة من مراحله الى نص نقدي يضبطه أو يوجهه لم يشكل عائقا في وجه النص الابداعي الذي نما كما نمت باقي الأنشطة الأخرى وفق ديناميكية داخلية شكلت عامل حفظ ودفع للنص الإبداعي ومكنت من توفير شروط تأسيس وبناء العلوم التي انشغلت واشتغلت بالنص الإبداعي. فهل أفاد ذلك النص الإبداعي أو أضاف اليه فعالية لم تكن له من قبل، كما هو الحال الآن في اصطناعنا لشتى المناهج في الدراسة النقدية.

قائمة المصادر والمراجع

(1)- الحيوان تحقيق عبد السلام محمّد هارون مكتبة الجاحظ. مصر. ط1. 1938 ج1. ص36-37.

(2)- تاريخ النقد الأدبي عند العرب. أحمد طه إبراهيم. دار الحكمة. بيروت. ص11.

(3)- تاريخ النقد الأدبي عند العرب. أحمد طه إبراهيم. دار الحكمة. بيروت. ص12.

(4)- طلائع النقد العربي. عز الدين الأمين. جامعة الخرطوم. ص4. يناير 1965.

(5)- المرجع نفسه. ص7.

(6)- المرجع السابق. ص 7.

(7)- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية.حسين مروه دار الفارابي بيروت 1985 الطبعة الخامسة الجزء الأول- ينظر الفصل الأول من القسم الأول.

(8)- تكوين العقل العربي. محمد عابد الجابري دار الطليعة بيروت 1985 الطبعة الثانية. الجزء الأول ينظر الفصل 1 و 2 و3 من القسم الأول.

(9)- مفهوم الأدبية في التراث النقدي. توفيق الزيدي دار النشر تونس 1985. ص92.

(10)- المرجع نفسه. ص94.

(11)- نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي. عبد العزيز جسوس. مطبعة تينمل للنشر والطباعة و التوزيع مراكش 1995. ط1. ص7.

(12)- المرجع السابق. ص8.

(13)- المرجع نفسه. ص 8.

(14)- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني. القاهرة 1974. الجزء الأول ص3.

(15)- المصدر السابق. ص 24.

(16)- فيض الخاطر لأحمد أمين سلسلة الأنيس إشراف محمد بلقايد الجزء الثاني. ص 351-353، موفم للنشر 1989 الجزائر.

(17)- المرجع السابق. ص 353.

(18)- سورة يوسف، الآية 2.

(19)- سورة فصلت الآية 3.

(20)- المختصر في تاريخ البلاغة للدكتور عبد القادر حسين ط1 دار الشروق 1982 بيروت القاهرة. ص 28.

(21)- العمدة لابن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت ج1. ص 132.

(22)- ترجح أغلب المصادر وفاة الخليل سنة 164هـ ووفاة سيبويه سنة 174هـ.

(23)- ناصر الدين الأسد/مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ط5. دار المعارف 1978. ص189-190.

(24)- المصدر السابق. ص 223.

(25)- أحمد أمين. فيض الخاطر 2. سلسلة الأنيس. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية 1989، ص 351-406.